الفصـل الأول

آل البنا بين التكفير والتفكير

«1»

آل البنا.. كان لتلك الأسرة البسيطة التي كونها الشيخ أحمد البنا أو كما عرفه أهالي قريته بالمحمودية «أحمد الساعاتي» نسبة إلى حرفة إصلاح أعطال الساعات التي كان لا يملكها آنذاك إلا الأثرياء وميسوري الحال، تأثير قوي وفعال على الحياة السياسية والاجتماعية المصرية وأيضا العالمية، فقد بدأ هذا التأثير من أواخر العشرينيات وامتد إلى يومنا هذا.

وحمل ذلك التأثير أوجه مختلفة وسلك طرقاً متعددة، وكان له إيجابياتٍ في مراحل وسلبيات في مراحل أخرى، وهنا نحاول أن نرصّد بالمعلومات، ونحلل بالوقائع تلك الأسرة وتأثيرها.

ويكمن اهتمامنا بتلك الأسرة لما أخرجته لنا من متناقضات، فكانت بين الوالد أحمد البنا الذي سخّر حياته لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل بدعمٍ خارجي، وأبناء كوَّن أكبرهم وهو حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين الإرهابية التي نعاني جميعاً مما خلّفته لنا من دمار، وأصغرهم وهو جمال البنا الذي أسس دعوة الإحياء الإسلامي فكان إضافة حقيقية للمكتبة الإسلامية، والذي كثيراً ما أثار الجدل حول أفكاره التي يراها البعض تهدم أركان الدين الإسلامي، فكان لكل فردٍ من أفراد تلك الأسرة هدفٌ ورسالة يحاول أن يحققها، ولكن في النهاية كانت تصبُّ رسائلهم جميعا بداية بالأب وانتهاءً بالأبناء لدعم هدف واحد، وكان هذا الهدف هو التقليل والتقزيم من دور مؤسسة الأزهر الشريف، وخلال ما سنعرضه سنتعرف على العوامل المشتركة التي حملتهم على تلك المؤسسة العريقة وأيضاً سنتعرف على النشأة والتكوين لتلك الأسرة ومراحل تطورها.

الأب...

ولد الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، مؤسس أسرة آل البنا في عام 1882 بقرية شميشرة مركز فوّة محافظة الغربية، أو كما كانوا يطلقون عليها آنذاك مديرية الغربية، وعملت أسرته على تحفيظه القرآن على يد شيخ يدعى «محمد أبو رفاعي» وتعلم أحكام التجويد، واكتسب حرفة إصلاح الساعات عندما ذهب في إحدى زياراته إلى قرية «مطوبس» ليصلح ساعةً عند صانع كان يحضر مطوبس يوم السوق، وسرعان ما تطورت علاقته به إلى صداقة أدت به لأن يذهب إلى رشيد ليتلقى أصول الصنعة على يد صانعٍ محترف، ولكن مهارة الصانع لم ترضه، فذهب للإسكندرية وتعلم هناك في محل كبير يمارس المهنة، وكان لهذا السبب الأكبر في أن يلتحق بالدراسة بمسجد القائد إبراهيم الذي كان يماثل الأزهر في القاهرة، وبهذا أصبح يمكنه مواصلة علومه واستكمال حرفته، وبعد أن انتهى من تحصيل العلوم الشرعية عاد إلى شميشرة وخطب الجمعة في مسجد القرية، وبدأ يمارس إصلاح

الساعات أيضا بالقرية، وتزوج في 25 أبريل 1904م من فتاة تدعى «أم السعد إبراهيم صقر»، ثم انتقل للسكن في المحمودية- التي أخذت اسمها من اسم السلطان التركي محمود عندما شق محمد علي ترعة تبدأ منها، وأطلق عليها ترعة المحمودية، وهي الترعة التي تزود الإسكندرية بالماء العذب من النيل ولهذا لم تكن المحمودية قرية مغمورة كانت بندرا نشطا».

فاشترى بها منزلاً صغيراً آوى إليه هو وزوجته كما اشترى دُكاناً على النيل مباشرةً؛ لتصليح وبيع الساعات ثم توسع مع ظهور «الجراموفون»، والصورة الأولى للأسطوانات فأدخلها في تجارته، ولم يكن هذا مستنكراً لأن معظم ما كانت تنطق به هذه الأسطوانات كان تواشيح ومدائح، وكان معظم الملحنين من المشايخ، ولم تكن عملية إصلاح الساعات أو بيع الأسطوانات تمنعه من مواصلة هوايته بالاطلاع والمذاكرة وتحصيل العلوم الإسلامية، وبمرور الزمن جاء الأبناء متواترين، وكان ترتيبهم كالتالي: «في 14 أكتوبر 1906 أنجب حسن البنا؛ الذي أسس جماعة الإخوان، و«في 28 سبتمبر 1908 عبد الرحمن» الذي أسس المسرح الإسلامي وجمعية الحضارة، وفي «3 فبراير 1911 فاطمة»، و«في 10 فبراير 1913 محمد»، و«في 16 أغسطس 1915 عبد الباسط»، و«في 15 ديسمبر سنة 1920 أحمد جمال الدين» الذي أصبح مفكرا وأسس دعوة الإحياء الإسلامي، و«في 10 مارس سنة 1923 فوزية».

وعقد الرجل منذ أن انتقل إلى المحمودية صداقاتٍ عديدة مع رجالاتها وفضلائها وتجّارها، أمثال: عمدتها وأعيانها مما مهد له الطريق أن يلتحق بإمامة مسجد المحمودية، وأيضا بمأذونية المحمودية، ثم افتتح محل بقالة بأسفل منزله، وأضاف عملاً جديداً إليه وهو تجليد الكتب، ولكن رغم تلك الحياة المليئة بالكفاح والمعاناة؛ لمحاولة سدّ احتياجات الأسرة الكبيرة التي كونها، كان أيضاً حريصاً على تكوين مكتبته الخاصة والاطّلاع على الكثير من المراجع في التفسير والحديث، وكان أبرزها مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الذي كان مطبوعاً في ستة مجلداتٍ كبيرة، واتخذ الرجل له في الحياة رسالةً وهدفاً ومشروعاً كبيراً في ترتيب مسند الإمام ابن حنبل، ذلك العمل الذي لم يكن سهلَ المنال، وكان يحتاج إلى سنواتٍ عديدة وأموالٍ كثيرة ليتمّ ذلك العمل، ولقد ذكر لي ابنه الأصغر جمال البنا في مذكراته التي كنت قد كتبتها له ونشرته عنه: أن كبار الأئمة عجزوا عن ترتيب مسند «ابن حنبل» منذ أن وضع الإمام أحمد بن حنبل مسنده في القرن الثالث الهجري حتى القرن الثالث عشر؛ أيّ طوال عشرة قرونٍ كاملة وقد حاول الإمام «ابن كثير» أن ينجز تلك المهمة لكنه لم يُوَفَّق، وقال أن: «ابن كثير» عندما فشل في تلك المهمة، قال كلمةً تُصّور فدائية من يتصدى لها: «ما زلت أنظر فيه والسراج ينونص حتى كُف بصري معه» وذكر لي جمال أيضًا: أن مسندَ الإمام أحمد بن حنبل موسوعة في الحديث، فيحوي ما يقرب من ثلاثين ألف حديث، وقد جمعه وأعده الإمام «ابن حنبل» الذي يعدُّ إمام السّنة، فهو الرجل الذي

يعود إليه علم الحديث، ولكن الإمام وضع هذا الكتاب على أساس المسانيد: أعنِي المتحدثينَ عن رسول الله بمعنىً أوضح فمثلا: «داخل المسند وضع (ابن حنبل) مسند عائشة فأتى بحديث عن السيدة عائشة في صلاة الفجر وأنّ الرسول كان يصلي ركعتين، ثم حديث أن المسلمين انهزموا في كذا، ثم حديث آخر في الزكاة ثم آخر في الصوم وهكذا» بدون أيّ ملاحظة للموضوعات، فالجامع لكل هذه الأحاديث أنهم عن عائشة بمعنى أن «ابن حنبل» جمع أحاديث مختلفة في الموضوعات...ثم يأتي بحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص... وهكذا، فتكون الأحاديث جميعها صحيحة، ولكن دون ترتيب موضوعي، فالترتيب كان على أساس المسانيد: مسند عائشة ثم مسند عبد الله وغيرهما، وهذا ما ينفِّر الباحثين من الاعتماد على المسند في أبحاثهم لأنه يرهق الفرد، فمثلاً إذا كانت لديّ الرغبة في معرفة حكم الإسلام في الزكاة، فعندما ألجأ للمسند وأبحث أجدُ حديثاً عن الزكاة في مسند عائشة، وآخر في مسند عبد الله... إلخ، وهنا سأكون مضطراً أن أقرأ كلَّ الأحاديث، فكانت وجهة نظر «ابن حنبل» خاطئة من حيث الوضع لكونه وآخرون يهتمون بالمسانيد في الحديث وثقل المحدث: يعني قوة الحديث، فكان هذا هو الفهم حينها، ولم تكن العلوم أخذت التخصص والتفصيل كما هو الآن، فظل هذا المسند معطلاً عن الاستخدام، ولم يجرؤ شخص على ترتيبه حسب الموضوعات، فكان من يريد أن يقرأ فيه يجد صعوبة فينصرف عنه، وأقدم والدي على هذا العمل الضخم ورتبه على أساس الموضوعات بحيث كان الموضوع هو العنوان ويأتي تحته كل الأحاديث التي قيلت فيه من كلِّ الرواة والمحدثين عن الرسول.

وعندما كبر الأبناء خصوصاً الأولَين «حسن وعبد الرحمن» بدأتْ فكرة النزوح إلى القاهرة تراود الشيخ أحمد البنا خاصةً عندما سافر حسن البنا إلى القاهرة لأداء امتحان دار العلوم والانتظام فيها، وتعرض لاعتداء أحدّ زملائه عليه فلم يعد مجالاً للتردد، ثم بدأتْ مؤشرات الضائقة الاقتصادية تهاجم أحمد البنا: ذلك لأنه لم يكن مستعداً لتخصيص وقت كبير لكسب المال، لأن هذا سيكون على حساب مشروعه «الفتح الرباني - ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل» الذي كان من الواضح أن هناك جهات بدأت تعلم بمشروعه وتدعمه لكي يكتمل، والدليل التوثيقي على ذلك ما كان قد سرده ابنه الأصغر جمال البنا في مذكراته معي: بأن والده تلقى خطاباً من شخص انتهت به الأيام في نهاية السبعينيات: لأن يقوم بأول حركة مسلحة التي عرفت بالعملية الفنية العسكرية للتخلص من نظام الرئيس الراحل أنور السادات، وقد دفع حياته ثمناً لتلك الحركة وكان ذلك الشخص هو «صالح سرية» وكان يحتوي الخطاب على النص التالي:

«حضرة أخينا الشيخ الجليل أحمد عبد الرحمن البنا المحترم، أحييكم بتحية الإسلام الصافية النقية فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته... ونحمد الله العلي القدير الذي جمعنا على محبته، وربط بين قلوبنا على طاعته، فمحبة الله وطاعته هما ملاكُ الأمر وميزان

المؤمنين، ولقد صدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين قال: الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. ولقد أحببتك يا شيخنا -والله يعلم- منذ زمن بعيد، ولقد كنت حريصاً منذ مدة على اقتناء كل ما وفقك الله لطبعه، ولقد كنت دائماً أطالع ما تكتبونه بمجلتي الشهاب والمسلمون... ونحمد الله العلي الكبير على أن وصلتنا النسخ الثلاث من مسانيد الأئمة أحمد بن حنبل والشافعي والطيالسي -رضي الله عنهم- وقد أخبرنا الأستاذ قسام الرجب صاحب مكتبة المثنى،، الذي جلب لنا هذه الكتب فإنه جلب ثلاث نسخ أخرى من كلّ كتاب، ولقد حفّزتُ مع أخويّ اللذين اشتريا النسختين الباقيتين كثيراً من الإخوان على اقتناء هذه الكتب... وكثيراً ما كنا نجابه بأن مسند الإمام أحمد غير كامل، وحين تمامه فإنهم سيشترونه فنحثّكم راجين لكم التوفيق أن تسرعوا في طبع ما تبقى من هذا الديوان الكبير الذي جمع بين دفتيه كثيراً من السّنن، وبذلك تكونون قد رفعتم للسّنة مناراً عالياً يثيبكم الله عليه إن شاء الله... وفي الختام، نرجو غاية الرجاء أن ترسلوا لنا رسالة حال الانتهاء من طبع أي جزء من الأجزاء الباقية، وبذلك تكونون قد أسديّتم لنا فضلاً نَشهد لكم به عند الله يوم العرض الأكبر... والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته... 28 رجب 1377هـ. أخوكم المحب... صالح عبد الله سرية بغداد، الكرخ، سوق الجديد، مدرسة التربية الإسلامية».

إن تلك الرسالة لا تعكس فقط الدعم والحث الذي يوجهه صالح سرية للشيخ أحمد البنا للانتهاء من مشروع المسند ومساعدته في توزيعه، بل أيضاً هي تعكس طبيعة الدعم الذي كان يتلقاه نتيجة ترتيب المسند، وأيضاً العلاقة الخفية برجل صار بعد ذلك عدوّاً واضحاً للدولة المصرية، ومارس ضدها أعمال العنف والإرهاب، وتُلقي بمساحة من الضوء على مؤسس آل البنا، ووالد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان الذي لم يُذكر من بعيدٍ أو قريب في عمق عمل الإخوان، وارتضى لنفسه أن يذكر دائماً على هوامشها، ولكني أعتقد أنه كان في صلبِ الجماعة وكادراً من مفكريها وواضعيها.

الابن الأول حسن البنا:

لقد أراد أحمد البنا لأكبر أبنائه «حسن البنا» أن ينشأ نشأةً دينية، وأن يسلك درباً مشابهاً لدربه، فعهد به في طفولته الأولى إلى شيخ كُتَّاب القرية «محمد زهران» وكان كفيفاً، وكان لتلك العاهة النفع لحسن البنا كثيراً، حيث ذكر هو بنفسه ذلك الأمر في أول نبذةٍ من مذكراته «الدعوة والداعية» حيث قال: أثر التجاوب الروحي والمشاركة العاطفية بين التلميذ والأستاذ؛ وقعت حادثة في طفولة حسن البنا الأولى تبين كيف كان هذا الطفل الصغير كبيراً جداً في فهمه للعلوم الدينية والشرعية فاستطاع استقطاب عددٍ كبيرٍ من الاطفال، حيث كوّن حسن ورفاقه من الأطفال جماعةً سريةً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت تضم شقيقيه عبد الرحمن وعبد الباسط، وبدأوا في إرسال خطاباتِ تهديدٍ ووعيدٍ لمن يتصورون أنه يرتكب معاصي من أهل المحمودية، وينذرونه بأن يكفَّ عنها، مما يبين ميول هذا الطفل الصغير ليؤدي دور القيادة والزعامة مرتدياً رداءً دينيّاً وشرعياً، وأن استخدام خطاب التهديد بالعنف لا يمثل له أيّ تحفظات منذ طفولته الأولى، وحتى كان من

ضمن المرسل إليهم خطابُ شيخُ الكتاب نفسه، وذلك لأنهم شاهدوه يصلي في بعض الأحيان بين ساريتين، وهناك حديث ينهى عن ذلك، وهذه النقطة تحديداً، تفصيلة صغيرة جداً في الفقه، ومن الطريف أن جاء الشيخ بتلميذه حسن البنا ليقرأ له الخطاب، ولم يكن يعلم أن حسن نفسه هو من كتب ذلك الخطاب، ولا شك أن حسن البنا بفضل مطالعته ما يريد شيخه الكفيف أن يعلمه ويتعلمه تكونت لديه ثقافة واسعة، واستمر حسن في تحصيل علومه، وتجاوز مرحلة الطفولة، وبدأ الصّبا فكانت ملابسات التوفيق تتابعه، وكأنها ملاكٌ حارس تقوده خطواته في المسّار المطلوب دون انحراف؛ فدخل مدرسة المعلمين الأولية وتحقق له من هذه الخطوة عنصران كانا لازمين: الأول: التجربة الصوفية؛ والثانية أنها فتحت الباب أمام دخوله دار العلوم، فقد كان من الممكن أن يلتحق بمدرسة المعلمين بدمنهور دون المحوطات المعينة التي أحاطت بها فتفقد إضافتها، ولكنها في حالتنا كانت مقرَّ ضريح الشيخ السيد حسنين الحصافي شيخ الطريقة الأولى، والتقى فيها حسن البنا شيخها السيد عبد الوهاب الحصافي، وتلقى عنه الطريقة واستفاد من الأساليب التربوية الصّوفية وأدب الطريقة؛ مما أثّر فيه، وما استفاد منه وقد خاض حسن البنا التجربة الصوفية حتى أعماقها؛ من تهجدٍ، وصيام، وصمتٍ، وعزلةٍ، وزيارة الأولياء، وكما أنهم في التحليل النفسي يفترضون فيمن يمارسه أن يكون قد حلل نفسه أولاً حتى يستطيع تحليل نفوس الآخرين، فقد كان لا بدّ أن يعاني حسن هذه التجربة حتى يُلمّ بها تماماً ويضيفها إلى معارفه ومع أن حسن البنا حسب كلّ الكتابات تأثّر تأثراً عميقاً بالتجربة الصّوفية، إلا أن الصوفية لم تتملكه أو تستحوذ عليه تماماً لأمرين:-

أولهما: أن توجيه والده ودراسته على يديّ الشيخ زهران كانت سلفية، فأوجد هذا نوعاً من التوازن حالَ دون أن ينزلق في متاهات التصوف أو أن يلتزم بشاراتها كطريق، ومن هنا كان صوفياً صغيراً في الرابعة عشر من عمره يرخي عذبة بين كتفيه ويضع نعلين في قدميه، وقد كانت هذه رموز السلفية عندما أسس حسن البنا النواة الأولى للإخوان المسلمين، وكان ازدواج المعنى الصّوفي بالحفاظ السلفيّ الذي لم يكن معروفاً وقتئذٍ، فقد كانت هناك هيئات صوفية دون أن تكون سلفية كمختلف الطرق الصوفية أو السلفية دون أن تكون صوفية كالجمعية الشرعية والهيئات الوهابية.

وثانيهما: أن شدة انغماسه في الشعائر العبادية والمجاهدات الصوفية لم يكن بالكامل صادرا عن إيمان بأن هذه الصورة المغرقة هي الصورة العادية أو الطبيعية في السلوك، ومن ثَمَّ يفترض أن تستمر وتمارس أبداً، إن جزءاً من شدة الانهماك والانغماس يعود إلى فورة المراهقة التي زودت صاحبها بطاقةً إضافيةً، كان لا بد من امتصاصها بهذه الأساليب والمجاهدات بحيث لم تعدّ تزعجه أو تلحُّ عليه حتى اجتاز مرحلتها الحرجة، ثم رفض حسن البنا أن يلتحق بالأزهر لإيمانه بأنّ فكره رتيبٌ وطريقة التدريس به تقليدية وأنّه يحتكر الدين، ويجعل منه كهنوت، فكان من البداية يحمل بداخله ما زرعه به والده من عدم الإيمان بأهمية دور الأزهر لكونه تعمق في الدين دون أن يلتحق به، وكان اختيار هذا الصبي عكس الكثيرين ممن ينتمون لجيله حيث كانت الكلية الأولى هي الحقوق، ولكنه اختار أن يُدَرِّسَ للبراعم الصغيرة التي يكمن فيها المستقبل؛ مما يعلل ويفسر أن هذا الشاب لم يكن

ليخطئ دربه، فهو يعلم طريقه وما يريده جيداً، وبالفعل التحق حسن البنا بدار العلوم بعد أن اجتاز الكشف الطبي، والامتحان التحريري، وتحقق بعد ذلك تعيينه في الإسماعيلية وأصبح مدرساً، وحقق له التعليم أيضاً ما أراد وقدم إليه خبرات ثمينةٍ، ساعدته في تعليم الكبار واكتساب الجماهير منها؛ الأسلوب التربوي الذي أخذته الدعوة، ومنها القدرة الفائقة على تذكر الوجوه، وحفظ الأسماء وهي ملكة يمكن أن تكون من الملكات الشخصية له، ولكن لا بد أن ممارسة التعليم في الفصول قد نمّتها وعمقتها، وبالإضافة إلى هذا الدور العام للإسماعيلية؛ فإنها كانت هي التي قدمت لحسن الزوجةَ الملائمةَ تماماً لظروفه ودعوته، وهي واقعةٌ لها انعكاساتها على شخص الدّاعية، كما أن الإسماعيلية أيضاً شهدت النواة الأولى لتكوين جماعة الإخوان المسلمين التي نشأت بتبرع قيمته خمسمائة جنيه من الشركة البريطانية المسئولة عن إدارة قناة السويس، و الجماعة ما هي إلا شكل مكبّر للجمعية التي كوّنها وهو طفل؛ فكان الإخوان في بدايتها تسلك الطريق الدّعويّ، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتحمل في باطنها نفس أفكار العنف والتهديد الذي لم يظهر إلا بعد مراحل متقدمة لتكوينها، وكانت الجماعة تحاول أن تجذب لها أكبر عدد ممكن من الأعضاء، وتسجل الكثير من الوثائق، تمرُداتٍ أولى من أعضاء الجماعة ضد حسن البنا عندما وقعوا في صدامٍ مع أفكاره، وكيف تعامل هو معهم بكل خِسة ونذالة وبطريقة بعيدة كل البعد عن الإسلام وشرائعه، التي كان يروجُ أنها أسسٌ قوية تحميها وترعاها جماعة الإخوان، كما أن الجماعة لم يتم تأسيسها إلا بمباركة ورعاية من الشيخ أحمد البنا والده، فكان أحد العناصر غير المعلنة بشكل واضح لدعم الجماعة سواءً شخصياً أو سواءً عن طريق داعمي مشروعه من الدول المختلفة.

«2»

كانت العلاقة بين الشقيقين حسن وجمال البنا شديدة التعقيد، ومرت بمراحل متدرجة بدأت باصطحاب حسن البنا معه أصغر أشقائه جمال إلى الإسماعيلية؛ ليلتحق تلميذاً بمدرستها التي يعمل بها مدرساً فكان أستاذاً له بالمدرسة، وراعياً وحافظاً له في المنزل، ويصطحبه في بعض العطلات للتنزه، ولكن كانت المدرسة بالنسبة لجمال البنا، لا تمثل معنىً مهماً، فهي بالنسبة له كانت دائماً بلا قيمة، وذلك لكونه عكف على القراءة قبل أن يلتحق بالدراسة النظامية، واستطاع أن يكوّن ثقافةً تفوق ما يُدْرَسُ له من خلال مكتبة شقيقه حسن التي كانت مليئة بالكتب، ثم تطورت مراحل الطفولة لجمال البنا فتخللها مشاهدته، ومعايشته نشأة جماعة الإخوان وحرصه كأيّ طفلٍ عابثٍ غير مدرك أن يخرج في مسيرتها التي ترفع فيها الأعلام والرايات، والتي كان يقودها أشقاؤه حسن وعبد الرحمن وعبد الباسط، وكان يقف الأخير أمام المقاهي والتجمعات ليصيح في الناس معلناً أن جماعة الإخوان المسلمين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وكأنه يعيدُ إنتاج الإفراز الأول لشقيقه حسن بالمحمودية، ولكن تلك المرة بشكل معلن وواضح وليس خفيًّا ومستترا، ثم حاول جمال البنا أن ينمي ثقافته الدينية، وقرأ في الفقه والتفسير، ولكنه كان كلما تعمق في قراءة الفقة الإسلامي، وشروحه كلما زادت هوة المساحة الفكرية بينه وبين شقيقه حسن البنا وجماعته، وكان يأتي ذلك الخلاف رغم أنه كان يعاون شقيقه حسن البنا في بعض أعماله فعمل معه سكرتيراً لمجلة الإخوان المسلمين، وروى جمال في مذكراته أنه كان أقرب أشقائه اتصالاً بحسن؛ وذلك لكونه أصغرهم، ولا يشغله شيءٌ سوى الكتابة والقراءة.

كما ذكر أيضاً أنه رفض أن يكون تلميذاً لشقيقه حسن قائلاً: «في ذات مرة تحدث معي حسن عن الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، فقال لي: كان رشيد رضا تلميذاً مخلصاً لمحمد عبده يعاونه ويساعده ويحصِّل منه العلم، وبعد موت محمد عبده أصبح رشيد رضا شيخاً كبيراً في فقه الحديث، وكان له أيضاً ابن عمٍّ: تلميذًا له يعاونه ويساعده، وكان حديث شقيقي حسن وذكره هؤلاء له معنىً ودلالة؛ وهي أنّ كل فرد يكون له تلميذٌ وابن روحي، وأنه يريد أن أكون أنا ابنه الروحي مثل السابقين، فالتزمت الصمت وفهم هو بذكائه أنني لن أكون هذا الابن، ورفضت ذلك لأنني رفضت الإخوان المسلمين فكانت اطلاعاتي جميعها أدبيةً بحتة، فلم أدخل في طفولتي كُتَّاباً ولم أحفظ القرآن، ولم أحظَ بتربية المحمودية مثل شقيقاي حسن وعبد الرحمن، فكانت دراستي منذ الطفولة مدنيّة وهذا كان بعيداً عن فكرة الدين».

على العكس من آل البنا جميعا الذين انخرطوا في صفوف تلك الجماعة حينذاك، لم ينضم لصفوفها جمال البنا؛ لإيمانه أن الكثيرين الذين انضموا للإخوان ومن بينهم آل البنا، لم يكن لهم كينونةٌ خاصة مثله، فمن منهم كتب الكتب التي نشرت له، وكان دائماً يراها جماعةً متخلفة في معالجة القضايا التي تتعلق بالمرأة، والسياسة، والمسيحيين وغير

ذلك، وكان دائماً يصارح شقيقه حسن برأيه مما كان يتسبب في توتر العلاقة بينه وبين شقيقه، ولم يعلن حسن البنا هذا التوتر ولو مرة واحدة بشكل رسمي، فكان من صفاته ألا يجاهر بمشاعره سلبًا أو إيجابًا تجاه الآخرين حتى لا يخسر شخص يمكن الاحتياج إليه.

وفي عام 1945 بدأ النشاط الفكري لجمال البنا يظهر ويرى النور، فأصدر أول كتاب له وحمل عنوان «عقبات في الطريق إلى المجد - الفقر والجهل والمرض»، وفي عام 1946 أصدر كتابه الثاني «ديمقراطية جديدة» ولقد صدر هذا الكتاب كرد فعلٍ بعد الحرب العالمية الثانية، وبداية ظهور القوى الكبرى الجديدة المتمثلة في الانتصار الأمريكي في الحرب، فالكتاب كان يبشر بالديمقراطية الأمريكية والحرية، وجاء بهذا الكتاب فصل مهم جدّاً حمل عنوان: «فهم جديد للدين» وفي ذاك التوقيت كان وما زال مقيماً بمنزل الأسرة بشارع من شوارع الحلمية، وكان قريباً جداً من نادي الحلمية، لذلك كان يستمع لخطابات شقيقه حسن البنا من شرفة المنزل الذي يلقيها على حشود الإخوان المسلمين يوم الثلاثاء من كلِّ أسبوع، وكان ضمن ما يردد حسن من شعارات: «الموت في سبيل الله أسمى أمانينا، الله غايتنا والقرآن دستورنا، والرسول زعيمنا، وغيرها من الشعارات». ومن هنا كتب جمال البنا في كتاب «ديمقراطية جديدة» قائلاً لحسن البنا والإخوان المسلمين، ومن يسير على دربهم: «لا تؤمنوا بالإيمان وحده ولكن آمنوا بالإنسان، فلقد نزّل الله الأديان من أجل خدمة الإنسان، وتنظيم وتيسير حياته وليس من أجل تعقيدها» فعارض شقيقه الأكبر وجماعته على طول الخط، وكانت فلسفته هنا أن الإيمان لم يقترن بالإنسان فمن الممكن أن يضل ويضلل، فلا إيمان بعيدٌ عن الإنسان، فالإيمان نزل من أجل حياة الإنسان.

وفي أعقاب مفاوضات 1946 بين صدقي باشا رئيس وزراء مصر وبين وزير خارجية بريطانيا حول عملية استقلال مصر والسودان وغيرها، أصدر جمال البنا كتاباً صغيراً حمل اسم «على هامش المفاوضات» وحصل حسن البنا على نسخة منه وتوافق صدوره مع سلسلة من المقالات، كان يكتبها حسن البنا وتنشر له عن ذات الموضوع «المفاوضات» فقرأ الكتاب بشكل جيد جداً، وذكر الشيخ خياط عبد العزيز الخياط الذي كان وزيراً لأوقاف الأردن، أنه في أثناء اجتماع للمرشد حسن البنا ببعض أعضاء جماعة الإخوان، وكان هو بينهم ممسكاً كتاب «على هامش المفاوضات» وقال لهم جميعاً: رغم أن مؤلف هذا الكتاب شقيقي الأصغر ليس من جماعتنا، لكن تعلموا السياسة من هذا الكتاب ومؤلفه. وهذا يشير إلى أن حسن البنا كان يحترم آراء جمال البنا وكتاباته رغم خلافهما الفكري، وكان غاضباً بشدة لأن هذا الشاب لا تستفيد منه جماعته.

وكان هناك حادثةٌ أخرى وقعت لجمال البنا بعد تأسيسه حزب العمل الوطني الاجتماعي، إذ حاول حسن البنا أن يستغل نتائجها ليحفز شقيقه جمال ويجذبه للانضمام لصفوف الجماعة، وكانت تفاصيل الحادثة، أن هذا الحزب الذي أسسه جمال كان في المرحلة الليبرالية وله دلالة على عدم وضع قيودٍ على الحريات، وكان للحزب أملٌ وطموح لا يستطيع تحقيقه ولا غيره من الأحزاب؛ إذ كان مطلبه إنهاء فترة التطور الحضاري التي بدأت في القاهرة والعصر الحديث، وذلك لوجود عائق كبير للتلاؤم مع هذا العصر، فكانت مهمة

الحزب معالجة هذه القضية الحضارية، ولكن بقدر ما كان الحزب في الأغراض والوسائل رائعاً وعظيماً بقدر ما كان تكوينه هزيلاً وضعيفاً فلا يحتوي على أكثر من ستين عاملاً، وكان جمال البنا الوحيد الذي ينفق عليه فليس له مواردَ أخرى، وذات مرة كتب جمال البنا إعلاناً بأهداف الحزب، ومعارضته الاحتلال الإنجليزي، واشترك في توزيعه مع باقي أعضاء الحزب فقُبض عليهم جميعاً، وبمجرد أن علم شقيقه حسن البنا فقام على الفور بالاتصال بمحافظ القاهرة وكان يُدعى «سليم زكي» وبالفعل استجاب المحافظ، وأفرج عنه وعن أعضاء الحزب، وقابل جمال البنا شقيقه حسن بعد الإفراج عنه ليشكره، وهنا استغل حسن الفرصة قائلاً له: «أنت تكدح في أرض كاحلة، لا يوجد بها زرع، ولا ماء، ونحن في الإخوان لدينا حدائق مليئةٌ بالفواكه لا تجد من يستفيد منها فانْضَمْ للإخوان، تَسْتَفِدْ منها ومن شعبيتها» فابتسم له جمال وقال في هدوء: «إنّ شجرة الإخوان المسلمين لا تنبت الثمرة التي تطعمني»، فضحك حسن للردِّ ونصحه ما دام لا يوافق على الانضمام للإخوان بأن يحوّل هذا الحزب إلى جمعية، وفي هذه الحالة لن يتعرض للمضايقات من قبل البوليس، ووافق جمال البنا على اقتراحه، وحوّل الحزب لجمعية حملت اسم «جمعية العمل الوطني الاجتماعي».

ونلاحظ من الواقعة السابقة أن جمال البنا رفض إغراءات شقيقه حسن البنا بما ستوفر له الجماعة من حماية، حيث كان قد أصبح لحسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين شأنٌ كبير، فقد أصبحت تلك الجماعة أكبر هيئةٍ شعبية في مصر بالرفض، مصرّاً على موقفه الذي كان قد كوّنه عن قناعة لسببين رئيسيين؛ الأول أنه مؤمن بعقم تفكير تلك الجماعة، والثاني أنه يريد أن يكون له شخصية مستقلة لا تذوب في شخصية شقيقه كما صار لكل أشقائه.

وكانت المكانة التي وصلت إليها الجماعة حينذاك سبباً في جعلها تدخل في صراع كبير مع حزب الوفد، خاصة أن الوفد هو من يشكّل الحكومة، وبدأ الوفد يسوق بعض الشائعات ومنها أن الإخوان يعملون ضد الملك رغم أن كثيراً من رسائل وخطابات حسن البنا حملت تأكيداً على عكس ذلك «حتى أنّ الإخوان بعد ثورة يوليو حاولوا التأكيد على أنهم كانوا يعملون ضد الملك فعلاً إلا أن تلك الرسائل ضحلت ما يزعمون به»، ثم جاءت قضية فلسطين في عام 1948م، وتم إعلان دولة إسرائيل، فقامت مصر بإعلان الأحكام العرفية ردا على هذا الإعلان، وإعلان الأحكام يعني نهاية المرحلة الديمقراطية الليبرالية، وفي هذا الوضع الشاذ لا يوجد مجلس شعب، ولا مجلس أمة ولا مجلس شيوخ يحترم قراراته وتكون هناك رقابة على الصحف، وهنا وجد حسن البنا فرصته الذهبية ليتوغل في الشارع المصري بشكل أكبر، وأن يظهر هو وجماعته بدورٍ وطنيّ كبير على عكس أغراضهم الباطنة، وبالفعل بدأ حسن البناء إنشاء مجموعات الكشافة لطلبة المدارس صغار السن، والجوالة للشباب الذي يؤدون أفرادها تدريبات كالجنود داخل الجيش في منطقة المقطم، وعاون حسن في ذلك مجموعة من ضباط الجيش والشرطة كان قد تعرف عليهم، ووجد أن تلك الفرق

يمكن أن ينصهر فيها أعضاء النظام الخاص الذي كان قد كوّنه بشكل سريّ، وحاول حسن البنا دائماً الزعم بأن تلك المليشيات التي يكوّنها هي لهدف مقاومة إسرائيل: التي كانت قد اغتصبت فلسطين وحصلت على اعتراف دولي، وساق مبررات أن الجيش المصري حينها كان فاقداً لكلِّ مقومات القوة، وتمَّ تجريده من آلياته لأن المشرفين عليه لجنةٌ بريطانية، فأراد حسن البنا أن يصنع جيشاً بديلاً فتوصل إلى أسلوب فرق الكشافة والجوالة، واشترك معظم أعضاء الجماعة في فرق الجوالة، وكان من الأصدقاء المقربين لحسن البنا آنذاك عبد الرحمن عزام - الذي تقلد منصب الأمين الأول لجامعة الدول العربية- وأمين حسين الذي قال: «إن فلسطين لا تحتاج إلى رجال بل تحتاج إلى سلاح.» وهنا وافقت الحكومة التي كان يرأسها النحاس على أن يسلك الإخوان طريقاً غير قانوني ووعدت بأنها لن تتدخل أو تعترضهم، وهو أن يجمعوا السلاح ليعطوه للفلسطينيين، ولأن ذلك الاتفاق والسعي من الإخوان واكبّ نهاية الحرب العالمية الثانية، فكانت النتيجة أن الإخوان جمعوا أسلحةً كثيرة جدّاً من الجنود البريطانيين مقابل المال أو جرعات من الكوكايين، وخلافه من الأساليب التي برروها بأن الضرورات تبيح المحذورات، وهذا ما ذكره شقيقه جمال البنا في مذكراته.

ولكن بعد ذلك تبدلت الحكومة وأعلن رئيس الوزراء الجديد «النقراشي باشا» لما تمرُّ به البلاد، وأصدر قراراً في ديسمبر 1948 بحلِّ جماعة الإخوان المسلمين لكونه اكتشف مدى خطورةِ التنظيم الخاص الذي كونته جماعة الإخوان، ونشأ تحت سمع وبصر الدولة خصوصاً بعد أن توحش هذا التنظيم فقتل قاضياً، وتورط في أعمال قتل وعنف وتفجير في ربوع مصر المختلفة، وصاحب قرار حلّ الجماعة اعتقال الكثير من أعضائها، والإقامة الجبرية لمرشدها حسن البنا، ورغم أن جمال البنا لم يكن من أعضاء الجماعة أو حتى من المؤيدين لها، وكان دائماً معارضاً شرساً لأفكارها إلا أنّ قرار الاعتقال طاله، فتم اعتقاله في سجن الطّور الذي قضى بين جدرانه عاما كاملاً خرج منه بعد اغتيال شقيقه حسن البنا.

وفي أثناء فترة كتابتي لمذكرات المفكر الراحل جمال البنا حاولت أن أعرف منه بعيداً عن كلِّ ما ذكر عما يحمله بداخله من مشاعر لشقيقه، فكان يقول لي دائماً: «حملت لشقيقي حسن مشاعر حبٍّ واحترام وتقدير بعكس ما حملتُ لمشروعه الفكري وجماعته وأعضائها، ولكن في النهاية أجدُّ أنَّ وجود حسن البنا ظلمني كثيراً؛ فلم يكتب حسن البنا ما كتبت من كتب، ولم يطرح ويثير قضايا فقهية كالتي آثرتها وحفظتها في كتبي ومجلداتي، ورغم كلِّ ذلك إلا أنهم دائماً ينسبوني إليه ولا ينسبوني إلى نفسي كوني مفكراً مستقلاً له مشروعه.

في النهاية... إن حسن البنا يمثل مشروع التكفير والتفجير والقتل والإرهاب بكل ما تعانيه مصر والوطن العربي وما انتقل من مشروعه إلى العالم، وكانت جماعته هي النواة الأولى لنشأة التيارات الإسلامية والجماعات التكفيرية في العالم، ولكن على العكس تماماً كان شقيقه جمال البنا مجدداً في الفقه الإسلامي، ومفكراً تنويرياً، وباحثاً اجتماعياً، ومنقباً عن الجزئيات الخفية والدقيقة في فقه التفسير للقرآن والحديث، ومؤسس لدعوة الإحياء

الإسلامى التي رغم أنها قوبلت بتعتيم إعلامي، أُريدَ به عدم التعريف بها إلا أنها شقت طريقها ليس فحسب فى مصر والدول العربية، ولكن أيضاً فى الخارج حيث أصبحت محلّ اهتمام الهيئات الدولية والجامعات، والتي كانت لا تهدفُ لتكوين حزبٍ أو جماعة، ولكنها تريد أن تقدم رؤية حرةً للإسلام، واستطاع أن يترك مجموعةً كبيرة من الكتب التي آثرت المكتبة العربية والإسلامية، والتي من بينها «على هامش المفاوضات، الحجاب، ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد، ديمقراطية جديدة، جواز إمامة المرأة الرجال، قضية الفقه الجديد، الإسلام والعقلانية، حرية الاعتقاد في الإسلام، الإسلام هو الحل، كلَّا ثم كلَّا، العودة إلى القرآن، قضية القبلات، جناية قبيلة حدثنا، روح الإسلام، والإخوان المسلمين في مفترق طرق، ومن وثائق الإخوان المجهولة» وغيرها من الكتب، ورغم أن كلاً منهما طرح ما طرح وترك ما ترك لنا ما بين إرث التكفير وما بين إرث التفكير، إلا أنني وجدت أن كلا الشقيقين ورثا خلافهم مع مؤسسة الجامع الأزهر عن والدهما، فقال جمال البنا في مذكراته: «إن خلافي مع الأزهر لم يكن في يوم من الأيام خلافاً فردياً بل كان دائماً خلاف أسرة كاملة، فالتقليد كان داخل الأسرة بكاملها، أن نتجاهل الأزهر ولا ندخل معه في نقاش، ولكن هذا لا يمنع من أن نردَّ على اتهاماته، ولكن لا نتقلد زمام المبادأة فنحن لسنا أزهريين فلا أنا ولا والدي أو أشقائي درسنا في الأزهر، كما أنني مقتنع أن دور الأزهر انتهى عام 1805م عندما عُين محمد علي والياً على مصر فالأزهر هو الذي اختاره، وتحدى به الخلافة والسلطنة العثمانية، وما كان من محمد على بعد أن تولى إلا أنه فرق بين مشايخ وأئمة الأزهر فنفى عمر مكرم بعد أن خلق الوحشة بينه وبين المشايخ واستولى على أوقاف الأزهر وأدمجها في الدولة، وبالتالي أصبح الأزهر لا قيمة له بالمعنى الحقيقي، وهذا كان غريباً من رجال الأزهر أن يولوا رجلا لا ينتمي لمصر ولا يتكلم لغتها، وبالفعل تسبب الأزهر في أن تحتل مصر أسرة عقيمة «الأسرة العلويّة» كما أنه ليس للأزهر وقفات تذكر باستثناء بعض الحالات البسيطة ومن بينها وقفة الشيخ المراغي للقصر في عهد فاروق، ولكن باستثناء هذه الحالات ليس له دور، ومن أكثر الشخصيات الأزهرية التي أحببتها وهي نادرة مثل «محمد عبده» الذي كان يعدّ دليلا على قوة الدين الإسلامي وبساطته وكان يحارب بشدة من مشايخ الأزهر نفسه؛ لكونه مجتهداً ومبسطاً وليس عقيماً ومنفراً»، وإن كان هذا هو العامل المشترك الوحيد الذي اتفق عليه كلٌّ من الأب وولديه إلا أنني أعتقد أن عدم انصهار تلك الأسرة في مؤسسة معتدلة ووسطية مثل الأزهر الشريف كان سبباً رئيساً في أن يخرج منها حسن البنا مؤسساً لجماعة إرهابية، تستخدم التطرف الديني عنواناً كبيراً لتحقيق أهدافها السياسية والسلطوية، وأيضاً سبباً في كل الجدل الذي أثاره الراحل جمال البنا بالكثير من الكتابات التي اختلف معها علماء الأمة الإسلامية، ورغم ذلك فهذا لا يقلل أبداً من حجم جمال البنا كمفكر إسلامي ستظل أعماله وكتاباته باقية مع الأجيال.